الشعر والتاريخ

الدكتور نوري حمودي علي
كلية الآداب / جامعة بغداد

لم يعد الشعر مقتصرا على الجانب الذاتي ، ولم تعد الفاظه ومعانيه خاضعة للاغراض التقليدية التي حصرت فيها دلالته ، او وقفت عندها صورة ، وانما تجاوز الصورة الى التعبير عن دقائق الاشياء ، واتسعت دائرته ليعبر عن مختلف الاحاسيس التي بدأت تأخذ حجمها في الوسط الجديد ، وتحمل دلالتها في المجال الحياتي الذى بدأت بوادره تتسع في كل ميدان ، وتجاوز الاحداث التي كان يعالجها الى احداث جديدة فرضتها الوان الحاجة ، ودعت اليها لوازم الانطلاق وحاجات المجتمع ومن الطبيعي ان يأخذ الشعر مكانته في هذا الواقع ، ويحقق وجوده في البناء الاجتماعي والنفسي لمسايرته المراحل التي خاضتها الامة وهي تبني قواعد دولتها ، وتحدد ابعاد حركتها التي تمكنت في كل نفس ، واتصلت بكل دعوة ، وكما كان الشعر صورة لحياة العرب قبل الاسلام ، ووثيقة صادقة من وثائق الدعوة الاسلامية ، ولوحة واضحة من لوحات حركة التحرير التي قادتها قوافل المحررين ، فهو صورة لاستمرار هذه الحركة التي بدأت تمتد الى كل ارض ، وتصل الى مجاميع البشر الذين ظلت حياتهم رهينة الاسر وحياتهم خاضعة لسلطان القهر والعبودية ، وهو تعبير عن مشاعر الجمهور الذى واكب هذه الحركة وتلمس اثارها وعرف كل جانب من جوانبها ووقف على كل حقيقة من حقائقها ، والتزم بمتابعتها وفق ما كانت تهيؤه الظروف ، ووفق ماتفرضه لوازم التعبير وتؤكده نوازع الشعراء الذين حرصوا على نقل الصورة كما كان يراها الجمهور ، وكما كان يريد لها ان تكون ، — . وعلى الرغم مما

قيل بشأن هذا الشعر الذى عاصر الدولة العربية في عصر الراشدين وما كتب عن الشعر الذى قيل في احداثها فان الشعر الذي رافق احداث الدولة العربية في العصر الاموي مايزال بحاجة الى المتابعة للكشف عن دور الشعراء الذين وقفوا على معطيات العصر وحاولوا ان يواكبوا المشاعر التي ظلت تمد العصر بكل عطاء واذا كانت حركة التحرير قدامتدت الى اصقاع بعيدة عن الجزيرة العربية وفي ظل خلافة الراشدين فان عصر الدولة العربية في العهد الاموي قد شهدت حركة مجابهة حاسمة وهي تصارع قوى البغي وتقاوم جبروت الطغيان الذى كان يتربع على حدود الدولة وهذا ما كان يدفع الدولة الجديدة الى ان تعد نفسها وتُهيء قوتها وتدرب مقاتليها لاستكمال حركة التحرير والسعي من اجل اعادة الحياة الكريمة للانسان الذى ظل يعاني من الظلم القاهر والاستعباد المقيت والعبودية الرهيبة ، فعبد الملك بن مروان كان يركب الحرب على كل حال من حالاتها بعد ان دأب على غزو الروم في كل عام وترك اثارا بعيدة لسنابك خيله لما كانت تظهرها وثباتها ، وتؤكدها كثرة ترددها وغزواتها وقد وقف الاخطل عند اعمال هذا الخليفة فقال (١) :

امام سما بالخيل ، حتى تقلقلت ... قلائد في اعناق معملة حدب
شواخص بالابصار من كل مقرب ... اعد لهيجا أو مواقفة الركب
وفي كل عام منك للروم غزوة ... بعيدة اثار السنابك والسرب
وان لها يومين : يوم اقامة ... ويوما تشكي القض من حذر الدرب
غموس الدجى تنشق عن متصرم ... طلوب الاعادى ، لاسؤوم ولاوجب

ويأتي دور الوليد بن عبد الملك الذى امتدت غزواته وكثرت وقعاته واتسعت دائرة حركته حتى كتب له ان يصل الى ارض لم تطأها اقدام غيره ، وهي اشارات واضحة في حركة التاريخ العربي والاسلامي ، ووثائق صريحة في تحديد المسار الذى كانت تسعى اليه جيوش التحرير ، ولم يبتعد هذا المسار عن الشعر الذى كان يخلد كل عمل ، ويؤرخ كل حدث ، ويسجل كل توجه ، والاخطل

---

١ – الاخطل . الديوان / ٤٤ – ٤٧ .

يرسم لنا صورة الخليفة القائد ، وصورة الجيش الذى بلغت خيله تلك المواقع فيقول (١) :

وان اتعرض للوليد فاءنـــــــه نمته الى خير الفروع مضاربـــــه
تضيء لنا الظلماء غُرّة وجهـــــه اذا الاقعس المبطان ارتج حاجبـــه
ومابلغت خيل امرىء كان قبلـــه بحيث انتهت اثاره ومحاربـــــه
وتضحي جبال الروم غبرا فجاجهـا بما اشعلت غاراته ومقانبـــــــه
من الغزو حتى انضم كل ثميلـــة وحتى انطوت من طول قود جنائبـه
يمد المدى للعوم حتى تقطعـــــت حبال القوى وانشق منه سبائبـــه

واذا كانت حركة التحرير التي تحمل الوليد امرها ، قد وقفت عندها كتب التاريخ وهي تتحدث عن الخليفة او الولاة او القادة ، فان الدقائق الصغيرة التي كانت تؤلف الوجه الاصيل والاحساس المباشر قد وقفت عندها قصائد الشعراء وتحدثت عنها وقفاتهم وهي تشير الى استمرارية القتال وخوض المعارك ، ومجابهة الاعاجم ، دون ان تحول بينه وبين خصومه حوائل او يعتريه ملل ، او تخفف من همته صراعات حتى اصبح الروم ممتحنين بهذا القائد الفذ الذى احسن اختيار قادته ، ووفق الى انتقاء الرواد الذين بقيت اعمالهم خالدة في كل مجال وفوق بل ارض وفي كل قلب وقد وقف الاخطل عند هذه الدقائق فقال (٢) :

له يومان : يوم قـــراع كبـــش ويوم يستظل بـه ، مطيـــر
بكفيه الاعنة ، لاســـــــؤوم قتال الاعجمين ولا ضجور
قتلت الروم حتى شذ منهـــــا عصائب ماتحورها القصور
ولو كان الحروب حروب عـــاد لقام على مواطنها ، صبـور

وبقى الشعر يحمل الكلمة الصادقة ، والحس الانساني الاصيل ، لان الخليفة كان يقود الجيش ، وينتزع النصر ، ويحقق الفوز الساحق ، حتى كانت تخفق

---

١ – الا خطل . الديوان / ٢٨٩ .
٢ – الا خطل . الديوان / ٢٧١ .

فوق رأسه البنود والرايات وقد تجاوزت جيوشه الشعاب المقفرة ، والمفاوز الموحشة دفاعا عن الارض وحماية للانسان وحرصا على الأمانة التي حملتها الدعوة والتزمت بها الدولة وآمنت بها الجيوش ولم يكن مسلمة بن عبد الملك بعيدا عن الاحداث فقد كان صورة اخرى من صور البطولة التي خلدها الشعر ، ونموذجا آخر من نماذج القيادة الفذة التي سجلت المفاخر ، ومرة اخرى يعود الشعر ليسجل لهذا القائد فتحه (لطرندة) المدينة الرومية على لسان النابغة الشيباني الذى فصل طريقة الفتح ، وحدد ادوار الجنود ، ولون الصورة بكل ما احاط بها من نار وصخر ولهيب ، وكيف تسور الجنود اسوارها ، فقال (١) ؛

لايخمدا الحرب الآريث يوقدها ... في كل فجٍ له خيل مسانيق
يحوى سبيا فيعطيها ويقسمهـــا ... ومن عطيته الجرد السراعيـــف
أخذى طرندة منه وابل بـــرد ... وعسكر لم تقده العزل الجـــوف
مازال مسلمة الميمون يحضرهـــا ... وركنها بثقال الصخر مقذوف
وقد احاطت بها ابطال ذى لجـــب ... كما احاط برأس النخلة الليـف
حتى علوا سورها من كل ناحيـــة ... وحان من كان فيها فهو ملهوف

واذا كانت قوافل التحرير قد اتجهت نحو بلاد فارس في المرحلة الاولى فان قوافل التحرير بدأت تخوض قتالها في الجهات الرومية بعد ان تدربت الجيوش ، وعرفت المسالك وخبرت اساليب القتال ، وتمكنت من مجابهة الصعاب وقد لمع اسم القائد الاموى مسلمة ابن الوليد الذى باشر حصون بولق والاخرم وشهر بقيادة الجيوش التي كانت تملاء كل فج ، وتنشر ظلها فوق كل ارض ، ويغص بها كل واد ، ومثل ماوقف النابغة الشيباني في قصيدته الاولى ، فقد وقف عند قصيدته الثانية بعد ان مهـد لها بكل مايعد للحرب ، ويهيء للقتال . (٢) ومثل مسلمة عبد العزيز بن الوليد الذى اصلى خصومه النار الحامية ، واغرقهم بصواعقه المحرقة ، وترك في ترك كل ارض من اراضيهم مأثرة بطولية فريدة .

---

١ – النابغة الشيباني . الديوان / ٥٢ .
٢ – النابغة الشيباني . الديوان / ٥٣ .

فيومان من عبد العزيز تفاضـــــلا ففي اى يوميه تلوم عواذلـــــه
قيوم تحوط المسلمين جيـــــاده ويوم عطاء ماتغب قوافلـــــه
وللترك من عبد العزيز وقيعـــــة وللروم يوم ماتتم حواملـــــه (٢)

ومثل اولئك القادة في مجابهة الروم والتصدى لهم معاوية بن هشام الذى ظل بلاؤه محمودا بعد ان امتحن به الروم امتحانا عسيرا واصبحت ديارهم له مراتع وامنع حصونهم ميسرة والقوا ملوكهم وخروا سجدا واصبح عظيم المشركين مستعبدا بعد ان استعبد الانسان واستغل قدرته ...

اما العدو فقد ابحت ديارهـــــم وتركت امنع كل حصن مبلـــدا
ولقد ابحت من العقاب منـــازلا ترجو بذلك ان تنال الفرقـــدا
لما رأتك على العقاب ملوكهـــــم القوا سلاحهم وخروا سجـــدا
ما ان تركت بمشركين بربهـــــــم الاتركت عظيمهم مستعبدا (٣)

ولم تكن القلاع بعيدة عن تصور الشعراء ، او غائبة عن موضوعاتهم التي عالجوا من خلالها وصف المعارك ، او وقفوا عند احتدام المقاتلين لان القلاع والحصون والثغور كانت تأخذ مواقعها في الشعر لانها تمثل نقطة الاحتدام ، وبؤرة الصراع ، وسورة الاقتتال وهذا مايجعل الصورة عند الشعراء متحركة ومؤثرة لان كل جزء من تلك الاجزاء يحمل لوحة قتال مريرة او دفاع مستميت او استشهاد مشرف وهذا ماجعل الشعراء يقفون عند هذه المواقع وقفات طويلة وحساسة ويتناولون من خلالها النتائج التي تترتب بعد اقتحامها او اجتيازها والشعر لم يقف في حدود القواد الذين قادوا المعارك او خططوا للنصر وانما كان يقف عند جوانب المقاتلين الذين يرجحون كفة النصر ويقدمون الارواح رخيصة من اجل الشهادة او النصر . ويظل الشعر الاموى يواكب الفتح والتحرير . ويساير حركة التاريخ وهي تجوب كل ارض ، وتعبر عن كل ومضة من ومضات الحياة

---

١ – تنظر قصيدة النابغة الشيباني اللامية في ديوانه ١٠٠ – ١٠١ .
٢ – جرير . الديوان ٢ / ٧٠٢ – ٧٠٣ .
٣ – جرير . الديوان ١ / ٣٨٢

الزاخرة التي ملات البلاد وكما كان الشعر صورة لحركة الامة وهي تحرر الانسان ، وتعبيرا عن حياتها وهي تبني الحياة الجديدة ، ولونا من الوان مجتمعها وهي تشهد البناء الجديد فقد كان صورة لحياة الناس الذين كانوا يجدون فيه قناه من قنوات التعبير ، ومساكا من مسالك الاجتهاد لرفع الكلمة الهادفة ، وتوجيه الرأي الصائب ، والالتزام بالخط الفكري الموجه . وكان الشعراء يحملون اصوات تلك الكلمات ، وهموم اولئك البشر الذين كانوا يرفدون حياة الامة بكل جديد ، ويقدمون لمسيرتها العطاء المستمر . فالفرزدق الذى حمل نفسه ليشد اتساع صدور ابله الى الوليد بن عبد الملك وقد ادمى الطرق اخفافها ، وخدشت الاعياء ظهورها كان يعلم بأنه يأتي الى خير اهل الارض حيا لتحل اليه الامور ، بعد ان رجاه المشرقان لكل عان من الامر ، ورجته الارملة التي تحتاج اليه ، واصحاب الثغور الذين باتوا ينظرون اليه نظرة الحامي لكل حقيقة .. هذا الشاعر حمل همومه بكل امانة ، وجاء الخليفة ليعرض عليه ما يصنع العمال ويلخص ذلك بقوله (١) :

امير المؤمنين وانت تشفي ... بعدل يديك ادواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا ... ويكلفنا الدراهم في البدور (٢)
واني بالدراهم وهي منا ... كرافع راحتيه الى العبور (٣)
اذا سقنا الفرائض لم يردها ... وصد عن الشويهة والبعير (٤)
اذا وضع السياط لنا نهارا ... اخذنا بالربا سرق الحرير (٥)
فأدخلنا جهنم ماأخذنا ... من الارباء من دون الظهور
فلو سمع الخليفة صوت داع ... ينادى الله : هل لي من مجير

---

١ – الفرزدق . الديوان ١ / ٢٨٥ (صادر) .
٢ – اى يكلفنا جمع الدراهم واداءها اليه في مطالع الاهلة
٣ – الشعرى والعبور : كوكب يطلع في الجوزاء .
٤ – الفرائض : مايفرضه علينا من صدقات . يريد انه لا يرضى بالشاة والبعير وانما يريد مالا عينا .
٥ – السرق : الشقق . الواحدة سرقة .

واصوات النساء مقرنـــــــات وصبيان لهن على الحجـــور
اذا لاجابهـــــن لســـــان داع لدين الله مغضاب نَصـــور

وكانت شكوى الشعراء ترتفع من معاملة بعض العمال والولاة والامراء لتصرفاتهم غير المقبولة واستغلال مناصبهم ، وكانت دعوى الشعراء صريحة في تحديد العقوبة وتجريدهم من مهماتهم ، والكشف عن الاعمال التي قاموا بها ، ولم يكن حديث الشعراء رجما بالغيب او تأييدا لوشاية غير صحيحة ، وإنما كان حديثهم يعتمد الواقعة ، ويستند الى الحجة الدامغة ، ويشير الى التشخيص الدقيق الذى يمكن ان يعالج ، والموطن الضعيف الذى يمكن ان يؤخذ من خلاله الاصلاح المطلوب ، ولعل ابيات يزيد بن الصعق الى عمر بن الخطاب التي تؤكد هذا الجانب ، وتدعو الى المحاسبة الصريحة ، والمكاشفة الصادقة خير دليل على ذلك وفق القيم الجديدة التي التزمت بها الدعوة وسعى من اجل تثبيتها الخلفاء . حيث يقول :

ابلغ امير المؤمنين رسالـــــــة فأنت امين الله في النهى والامـــر
وانت امين الله فينا ومن يكـــن امينا لرب العرش يسلم له صـدري
فلا تدعن اهل الرساتيق والقـرى يسيغون مال الله في الادم والوفـر
ولاتنسين النافعين كلاهمـــــا ولاابن غلاب من سراة بني نصر
وماعاصم منها بصغر عنايـــــة وذاك الذى في السوق مولى بني بدر
وارسل الى النعمان واعرف حسابه وصهر بني غزوان اني لذو خبـر
وشبلا فسله المال وابن محـرش فقد كان في اهل الرساتيق ذا ذكر
فقاسمهم — نفسي فداؤك — انهـم سيرضون ان قاسمتهم عنك بالشطر
نثوب اذا آبوا ونغزو اذا غـــزوا فانى لهم وفر ولسنا ذوي وفـــر

ولعل اشعار عبد الله بن همام السلولي وقصيدته التي هجا فيها عامر بن مسعود والي الكوفة وذكر فيها بعض عماله الذين اساءوا السيرة ومالوا الى الخيانة تعد صرخة اخرى من صرخات الشعراء الذين وظفوا الشعر للتعبير عن

احساس المظلومين وجندوا طاقاته لايقاف المسؤولين على اعمال اولئك الذين تركت اليهم احوال الرعية . . . وهي ظاهرة لها مدلولها السياسي في دراسة الشعر والاحداث ، لانها صورة النزوع الى معالجة الواقع وصورة الادراك باهمية الشعر في الوقوف الى جانب الطبقة التي جاءت الدعوة من اجلهم تحريرا وعدلا وانسانية . . وهي اتجاه يجب ان يأخذ طريق الدراسة اليه سبيلا للكشف عن ابعاده ، لانه ادب الحقيقة الانسانية ، وادب المعالجة الموضوعية وادب الالتزام الذى عالج الشعراء العرب من خلاله الاغراض الشعرية الموجهة . . . فابن همام السلولي يقـــول : (١)

يااابن الزبير ، امير المؤمنين ، الـــم ... يبلغك مافعل العمال بالعمـــــل
باعوا التجار طعام الارض واقتسموا ... صلب الخراج ، شحاحا قسمة النقل
وقدووا لك شيخاً كاذبا ، خـــذلا ... مهما يقل لك شيخ كاذب يقـــل
اشدد يديك بزيد ان ظفرت بـــه ... واشف الارامل من دحروجة الجعل

ان الاحساس بمصلحة القوم ، والالتزام بالدفاع عن قضاياهم وتنبيه الحكام الى ماتعانيه الغالبية العظمى من جور السعاة الذين اوكل اليهم امر حياة الضرائب . . وقد حاول الشاعر ان يضع نفسه في الموضع المناسب من اجل الحقيقة التي كان يدافع عنها . . . .

وهو كعادة الشعراء الاخرين الذين حاولوا ان يجسدوا صورة الحديث عن الشكوى من خلال التشخيص الفني او التجريد الذاتي الذى حاول الشعراء ادخاله في قصائدهم ليتخذوا منه سبيلاً الى الحديث ، او مجالا التعبير عن الهموم المتراكمة ، والاحاسيس الصادقة التي كانت تعتمل في النفس ، او الخصائص الذاتية التي تميزوا بها لقد اصبح المنهج واضحا عند كثير من الشعراء . . .

---

١ – عبد الله بن همام السلولي . الديوان . مجلة العرب . السنة الاولى وينظر الجزء الخامس من انساب الاشراف ص ١٩١ ومابعدها .

فالراعي يتحسس ظلم السعاة ،ويشعر بجورهم بعد ان كثرت همومه وهويرى ظلمهم ، وهنا تجأت قدرته في وضع المطلع الذى اظهر فيه تقلبه على مضجعه ، واكد ارقه وطول هذا التقلب ليستطيع ان يدخل الى مرحلة التساؤل الذى تركه لخليدة التي بدأت تتساءل عن همه وارقه وطول حيرته . . وهي أشارات تطوي في ثناياها الحيرة التي كانت تنتابه وهو يرى جور العمال وظلم السعاة ، والوسيلة التي يمكن ان يعبر بها عن هذه الحيرة ، والاسلوب الذى يخاطب به الخليفة والاشكال التي يقدمها له لتكون حجته مقنعة ، واساسا لقبول الشكوى ، .. ان محاولة الشاعر وضع هذا التساؤل في بداية القصيدة ووفق المنهج التقليدى الذى يضع الحوار داخل القصيدة من اجل الاستفاضة في الحديث المطلوب وفسح المجال امام العرض الذى يريد ان يتقدم به ، والكشف عن الجانب الذاتي الذى يحرك الانسان من اجل الحقيقة ويدفعه من اجل التعبير ويترك له مجال الحديث من خلال المخارج المقنعة ، والعلل المقبولة ، كل هذه المسائل هي التي حددت له هذا التساؤل وتركته امام الحقيقة التي يريد ان يتحدث عنها من اجل الهدف الاساس ، والغاية المتوخاة ، لقد وفق الشاعر في مد الصورة ، ووفق في الوصف الذى وقف فيه عند راحلنه ، وقد حاول ان يضفي عليها مايجعلها قادرة على الوصول امينة في حمل الرسالة التي اضطلعت بها ، وآمن بحق هذه الجموع التي اكتوت بقسوة الجور وعانت من ظلامة ولاة الامور ... وهي وثيقة لها اهميتها لما تضمنته من صراحة واحتوته من حرية رأى ، واكتسبته من صدق معالجة ، والراعي يقدم وثيقته الجريئة ، ويحمل هموم بني نمير ، من خلال قصيدته هذه التي اكتسبت موقعها حتى قال عنها الراعي نفسه : من لم يرو لي هذه القصيدة وقصيدتي (١) :

---

١ — البغدادى : الخزانة ١ / ٥٠٢ .

بان الاحبة بالعهـد الذى عهـــدوا

مـن ولـدى فقـد عقنـي

والقصيدتان في معنى واحد ، وتجريان في غرض واحد ، وان حرص الشاعر على الالتزام والاهتمام بهاتين القصيدتين يشكل هدفا رئيسا في حياته . ويضعان الشاعر في مصاف اولئك الشعراء الذين نذروا نفوسهم من اجل امتهم ، وحققوا لها الحياة الكريمة ، وعبروا عن طموحها عندما تريد ان ترسم مستقبلها ، ووقفوا عند مصائبها عندما نزلت بها التوازل فكانوا السنة صدق صريحة ، واوعيـــة مشاعر امينـــة ....

ان اطار القصيدة الواسع يحدد لنا كثيرا من الجوانب الانسانية التي عرف بها هذا الشاعر ، ويحدد كثيرا من الجوانب الاخلاقية التي اصبحت سمة من سماته ويحدد كثيرا من الجوانب الفكرية التي عبر من خلالها عن فلسفته في الحياة وعقيدته ، وايمانه بحق الدولة التي تؤمن للفرد العدالة وتدفع عنه المظالم ، وتنقذ بقيته من جور اولئك الذين أتمنتهم الدولة على افرادهـــا ..

ان مفتاح الاستفسار الذى تضعه خليدة هو مفتاح الحديث الذى يريد ان يعبر عنه الشاعر ، وهو تجريد واضح وتجسيد لنساؤل مشروع درج عليه الشعراء فقلدوه ، فكان حوارا صريحا تناولوا فيه القضية الاساسية التي ارادوا التعبير عنها ، ثم تركوا لانفسهم مجال الحديث ، عن اولئك الذين ازروا باموال القوم وبدأوا بأخذ الزكاة مضاعفة ، وقد عانى الفقير من ذلك معاناة صعبة لانه لايملك من اللبن الا قدر كفايته .. لقد حاول الشاعر ان يعبر عن احوال قومه مخلصا ، وينقل احساسهم الى المسؤولين ملتزما ، ويرفع شكاواهم اليه صريحة وأميتا . وقد استجاب الخليفة لطلبه ، ولعل صورة الاباء والترفع والشرف تتجلى في الحوار الذى دار بين الشاعر والخليفة فعندما قال له ، عبد الملك ، فتربد ماذا ؟ قال : ترد عليهم صدقاتهم فتنعشهم . فقال عبد الملك : هذا كثير ، قال : انت اكثر منه ، قال : فسلني حاجة

تخصك ، قال : قد قضيت حاجتي . قال : سل حاجتك لنفسك . قال : ما كنت لافسد هذه المكرمة (١) .

ان صورة الشاعر وهي تحمل النقل الامين لهموم الجماعة ، والاحوال الجائرة التي ترتكب باسم السلطان ، وتبصير اولى الامر بها لوضع حد لها ، وتخليص هذه الجموع مما تعانيه وانقاذها مما تتجرعه على ايديهم تمثل الريادة الحقة في اداء الرسالة ، والصيغة السليمة التي يجب ان يتمثل بها كل الشعراء الذين ترك لهم مجال التعبير ، وحملوا رسالة القلم واستوعبوا احساس المجاميع الكبيرة التي كانت تنظر اليهم باحترام ، وتسلم مقاليدها اليهم بثقة .

وكان الراعي من خلال هاتين القصيدتين صادقا مع نفسه لانه استطاع ان يحقق لها وظيفتها في العمل والاحساس ، وصادقا مع غيره لانه استوعب المسألة وادرك ابعادها وادى امانتها دون ان يبالي بما يترتب عليها ، وقد كان موفقا في اختيار المعاني والتمهيد والانتقال ووضع الصور في المواضع المناسبة وهذا ماجعل هذه القصائد وغيرها صورة من صور الالتزام الحقيقي .

وبقى الشعراء يحملون هذه الهموم على الرغم من تفاوت المسؤولية التي يؤدون بها هذه الهموم ولكنها كانت من حيث الاداء قادرة على نقل المشاعر والاحاسيس وهي مشاعر متناثرة في بطون الدواوين وقد آن الاوان لجمع تلك القصائد التي تعطي تاريخ الامة قدرته على العطاء وتحدد للجماهير قدرتها على المجابهة وتبين للشعراء التزامهم بواجبهم في الريادة والقيادة . وقد ظلت الدراسات بعيدة عن ابراز هذا الجانب وتوضيح ابعاده الانسانية ، لانها كانت تعرض للشواهد لامن حيث الاداء والدلالة وانما من قبل الاستشهاد وهو باب افقد كثيرا من النصوص مضامينها ، وافرغهامن المحتوى الحقيقي الذى كانت تدور فيه لان الشعراء عندما تحدثوا في هذه المجالات كانت احاديثهم صورة من صور التعبير الحقيقي عن المعاناة ، وانهم كانوا يعلمون ان اولئك العمال او الولاة كانوا يتجاوزن في

---

(١) الاغاني ٢٠ / ١٧٢ (بولاق / ١٢٨٥) .

في اعمالهم الحدود المقررة والاهداف المرسومة، والاعراف التي التزمت بها الدولة ولعل اجابات الخلفاء لتلك الصرخات والمحاسبة الحازمة التي كانوا يأخذون بها اولئك الولاة كانت تؤكد هذا الجانب وتعطي تلك الدلالات التي ظلت اساسا من أسس البقاء الحقيقي لكيان الدولة.. فهذا كعب الاشقرى يخاطب عمر بن عبدالعزيز فيقول (١) :

ان كنت تحفظ مايليك فانمـــا عمال ارضك بالبلاد ذئـــاب
لن يستجيبوا اللذى تدعو لـــه حتى تجلد بالسيوف رقـــاب
باكف منصلتين اهل بصائـــر في وقعهن فواجرٌ وعقـــاب

وعندما وقف عمر بن عبد العزيز على المنبر ليخطب في الناس قام اليه رجل فقال (٢) :

ان الذين بعثت في اقطارهـــا نبذوا كتابك واستحل المحـــرم
طلس الثياب على منابر ارضنـــا كل يجور وكلهم يتظلـــم
واردت ان يلي الامانة منهـــم عدل وهيهات الامين المسلـــم

ولم يبتعد الشعر عن تقديم الصورة الحقيقية التي كانت عليها حالة بعض القبائل عندما يشتد بها الجدب، وتتوالى عليها سنوات القحط، فترتفع اصوات الاستغاثة والنداء والشكوى وعندها لم يجدوا وسيلة الا مناداة الشعراء باصوات الهلاك، وهنا يتحرك الشعراء لنقل الاخبار وتقديم الصورة الى الخليفة كما صنع الفرزدق حين قـــال (٣)

رأوني فنادوني، اسوق مطيتـــي باصوات هلاك سغاب حرائـره
فقالوا : اغثنا ان بلغت بدعـــوة لنا عند خير الناس انك زائـــرة
فقلت لهم : ان يبلغ الله ناقتـــي وايای اني بالذى انا خابـــره
... اغث مضرا ان السنين تتابعـــت عليها بحر يكسر العظم جـازرة

---

١ – كعب الاشقرى . الديوان / ٣٩٠ (ضمن كتاب « شعراء امويون – القسم الثاني)
٢ – الجاحظ . البيان والتبين ٣ / ٣٥٩ .)
٣ – الفرزدق . الديوان ١ / ٢٤٨ .

ويستمر الشاعر في نقل الصورة التي رأها، ووضعها امام الخليفة الذى أخذ على نفسه رعاية الابناء وحمايتهم من عاديات الزمن وخطوب المجاعة ولوعة الفقر البائس ، وعندما تتوالى سنوات الجدب وتستمر ايام البؤس والمسغبة ولم يعد الصبر علاجا لايقاف خلجات الصدور واسباب التذمر يفزع الناس الى الشعراء للاعراب عن اوضاعهم التي اصبحت لاتطاق وفي هذا الموقف الانساني تتحرك مشاعر التأثر ، وتنطلق جوامح الكلم لتعبر عن الحس الانساني الذى اصبح الناس عليه وتشد الرواحل الى حيث يفزع الناس لتدارك الواقع المؤلم وايقاف الحاجة القاتلة وسد الافواه الجائعة التي اصبحت غير قادرة على الصمت ولا مؤمنة بالواقع المرير . ونهض الفرزدق ثانية ليسوق راحلته من (قسا) الى حيث الحاجة واو المنتجع فيقول(١)

وساقنا من « قسا » يزجى ركائبنـــا ... اليك منتجع الحاجات والقـــدر
وجائحات ثلاث ماتركن لنـــا ... مالا به ، بعد هن الغيث ينتظـــر
ثنتان لم تتركا لحما وحاطمـــة ... بالعظم حمراء حتى اجتيحت الغرر
فقلت كيف باهلي حين عض بهـم ... عام له كل مال معنق جـــزر
عام اتى قبله عامان ماتركـــا ... مالا ولا بل عودا فيهما مطـــر

ويعود الفرزدق مرة اخرى الى وضع الصورة امام سليمان بن عبد الملك وهي صورة تدعو الى الاشفاق بعد ان عض الدهر عليهم نبواجذه ، وامسك بهم القحط حتى بات الاحياء يغبطون الاموات وتمنوا ان يكونوا موتى .. فقال (٢) :

لم يبق منهم غير الســـنة ... واعيظم وحواصل حمـــر
ويُحجرون بغير اغطيـــة ... في البر من بعثوا وفي البحـــر
ويكلفون ابا عرا ذهبـــت ... جيفا بلين ، تقادم العصـــر
حتى غبطنا كل محتمـــل ... يمشي باعظمه الى القبـــر
وتمنت الاحياء انهـــم ... تحت التراب وجيء بالحشر

---

١ – الفرزدق . الديوان ١ / ١٨٢ .
٢ – الفرزدق . الديوان ١ / ٢٦٣ .

ومثل وقفة الفرزدق يقف جرير والراعي والاخطل ومعظم الشعراء الذين كانت تهزهم اوضاع ابناء امتهم وهم يعانون ظروف الدهر القاهرة ، ويجابهون قسوة الطبيعة ، ويشعرون بسطوة الدهر التي تدفعهم الى الشكوى وتحملهم على الوقوف من اجل الدفاع عن وجودهم وتلُّح عليهم هذه الظروف لمناشدة الشعراء وهم يحملون قدرة التصوير وبراعة الوصف ويمتلكون دواعي الحضـــور في حضرة الخليفة لايصال هذه الشكوى ونقل الحالة المؤلمة التي تضطرهم اليها طبيعة الحياة . وعلى الرغم من كل الاحداث التي رواها المؤرخون ووقفوا عندها وهم يعالجون المواقف ويؤرخون الايام ويواكبون مسيرة الامة فأن هذه الزوايا التي ظلت بعيدة عن التناول بقيت بحاجة الى الكشف الذى يعطي العصر طبيعته ، ويحدد ملامحه الى جانب كونه يمثل صورة الوضع السياسي الذى كان فيه الخليفة يستجيب لكل الاصوات ، ويستمع لكل الأقوال التي كانت ترفع اليه او تعرض في حضرته او تناقش في مجالسه ، كما كان بعض الشعـراء — يحملون امانة النقـل ، ويحرصون على ايصال الصوت المسموع ، وينقلون الصورة التي كانت تدور في اذهان الناس بلا تكلف ، ويكشفون الواقع الحقيقي الذى يتعرض له الجمهور من قبل الولاة او العمال او العرفاء ، ولم ترهبهم سلطة ، ولايخشون في الحق لومة لائم ، لقد اغفل المؤرخون هذا الجانب ، او عرضوا له من خلال الزوايا التي لم تكشف عن الاهمية الكبيرة التي كان يمثلها ، وهذا ماجعل صورة الاحداث بعيدة عن وقائع التاريخ وفق دائرتها الكلية ، وجعل المضامين الانسانية التي وقف عندها الشعراء غير قادرة — وهي متناثرة على تحديد الاطار الفكري الذى كانت تعالج فيه القضايا ، فالخليفة الاموى كان يستمع والولاة الاخرون كانوا يتابعون والعمال الذين عرفوا بالتزامهم بالقيم الكبيرة التي دعت اليها الدولة كانوا يتحركون في هذا الاطار ، والشعر الذى ظل بعيدا عن التحريف ، وخارج دائرة التغيير يمثل الصورة الحقيقية لطبيعة العصر الذى اخضعت كثير من وقائعه الى المبالغة ، الى جانب الوضع والتزوير الذى اصبح صفة ملازمة لكثير من الاخبار بسبب الفترة التي كتب فيها تاريخ الدولة العربية في العصر الاموى ، حتى حمل من الاخبار

مالا يمكن تصوره ، وأفترى على الرجال المؤمنين من الاقوال مالا يصدق .. وتلك مسألة لابد ان يعاد فيها النظر ليأخذ الرجال حقهم ، ولتكتب الحقائق وفق منظور علمي يعطي الدولة العربية بعدها في التكوين ، ويحددلها دورها في تثبيت قاعدة الفكر العربي ، وفي ترسيخ قواعد الدعوة العربية ، وفي انضاج بواكير الفن العربي الاصيل .. ولابد ان يكون الشعر قناة جديدة تصب في المجرى التاريخي الذى اصبح بحاجة الى اغنائه بمادة جديدة توثق احداثه ، وتقوم ماخرج عن حقيقته وتؤكد الوجه المشرق الذى ابرزته الحياة العربية في كل عصر ..

وكما كان الشعر صورة للواقع العربي في عصر الدولة العربية في العصر الاموى وكما كان الشعراء السنة صدق ناطقة بالاحداث الكبيرة والصغيرة التي ألمت بالامة فانهم ظلوا يمثلون الصوت الحقيقي لتطلعات الامة وتسجيل تاريخها فقد كان ابو تمام لونا تاريخيا واضحا ، وصوتا عربيا عاليا ، وقف على احداث العصر في شعره ، وعبر عن احساس الجمهور في ابياته وتابع مسيرة الامة وهي تسعى من اجل تحرير الانسان ، وقد حفل ديوانه بهذه الاخبار التي تكشف عن كثير من الاحداث التاريخية التي لم تشر اليها اخبار المؤرخين . اما البحترى فكان قناة شعرية اخرى من قنوات التاريخ فهو يؤرخ لاحداث النزاع العنيف التي كانت تشنجر بين قبائل تغلب فتجر الى صدام مرير ومعارك دامية ويمكن اعتبار قصائد البحترى في تثبيت اخبار هذه الاحداث الوثيقة الوحيدة بعد ان اغفلتها كتب التاريخ ، ولم ينس البحترى وهو يتحدث عن هذه المعارك الاشارة الى جهود الفتح بن خاقان في انهاء الصراع واعادة الامور الى مجاريها ..

ولم يخف شعوره بالالم وهو يرى الديار تخرب والدماء تسيل والاخوة يقتلون حيث يقـول (١)

بني تغلـب اعـــز علي بـان ارى ديارکم امست وليس لها اهـــل
خلت بلد من ساكنيها واوحشـــت مرابع من سنجاريهمي بها الوبـــل

---

١ – البحترى . الديوان ١ / ٧٢ .

افي كل يوم فرقة من جميعكم تبيد ودار من مجامعكم تخلو
مصارع بغي تابع الظلم بينها بساعة عز كان آخره الذل

وعندما تجدد القتال بين قبائل بني تغلب وكاد يودي بها ويستأصل شأفتها ، قام الخليفة المتوكل بدوره لانهاء هذا القتال واوكل المهمة الى الفتح بن خاقان ، وكان الشاعر يدرك مبلغ الدمار والقتل والفناء الذى سيلحق بهذه القبيلة العربية ويدرك الدور الانساني الذى حققه هذا الخليفة الذى اعاد لم الشمل والف بين القلوب وخفف من الاندفاع الاهوج الذى ركب بعض الرؤوس ، فأعيدت الرماح الى مواقعها والسيوف الى اغمادها ، وقرت القلوب الواجفة ، فأذا بالسلام يفشو والهدوء يستتب والامان يعم وقد تم ذلك بجهد الخليفة الذى قال فيه الشاعر (٢) :

فلولا امير المؤمنين وطوله لعادت جيوب والدماء ردوعها
فقد ركزت سمر الرماح واغمدت رقاق الظبا : محفوها وصنيعها
فقرت قلوب كان جما وجيها ونامت عيون كان نزرا هجوعها

ومن الغريب ان تسكت كتب التاريخ عن هذه الاحداث وعن غيرها من التي وقف عندها البحترى وقفات طويلة مثل مدائحه للمتوكل عند سفره الى الموصل على رأس جيش كبير لقتال الروم (٣) :

ان هذه المواقف الواضحة والاشارات الدقيقة واسماء الاشخاص الذين يقف عندهم والحوادث التي اخذت حجمها في عصر الشاعر يجعل الديوان اكثر تأثيرا في تحديد اتجاه الشاعر الى جانب مادته التاريخية التي تضاءلت صورتها عند المؤرخين وضاقت ابعاد وجودها في كتبهم واسفارهم ، لان حرص الشاعر كان يصيب في تحديد الاسماء تحديدا دقيقا ، ويؤكد الصورة الواقعية التي كانت تتراءى كل احجامها في نظره وتنضح كل اوصالها في صورته المتميزة .

---

٢ – البحترى . الديوان ١ / ١٢ .

٣ – ينظر ديوان البحترى ١ / ٢١